من هم المستشرقون ؟

الاهتمام بدراسة اللغة العربية والعلوم الإسلامية – التى هى موضوع الاستشراق – أمر قديم جدا فى أوربا، يرجع إلى العصور الوسطى. ولكنه اتخذ أطواراً مختلفة، متأثراً فى كل طور بالدوافع الدينية والسياسية والاقتصادية والثقافية فى أوربا.

فإذا تتبعنا اتجاه الغرب لدراسة الإسلام والعلوم الإسلامية منذ القرن العاشر الميلادى تقريباً حتى القرن العشرين، فإننا نستطيع أن نميز على وجه الإجمال أطواراً أربعة – على الأقل – واضحة المعالم، كل منها يعبر عن موقف معين لأوربا باتجاه الإسلام.

ففى بداية الطور الأول كانت أوربا تعيش فى جهالة «القرون الوسطى المظلمة» كما سمت تاريخها فى تلك الفترة، ولم يكن لديها مصادر ذاتية للمعرفة النافعة. وحين بدأت تفيق من جهالتها – على إثر احتكاكها بالمسلمين فى الأندلس والشمال الأفريقى – لم يكن أمامها من سبيل للتعلم والمعرفة إلا أن تتتلمذ على المسلمين وتقرأ كتبهم ومؤلفاتهم. فانطلقت البعوث الأوربية إلى الأندلس وشمال أفريقيا، يتعلم طلابها العربية ويدرسون علوم الإسلام، ويأخذون عن الأساتذة المسلمين علوم الطب والفلك والفيزياء والكيمياء، والجبر والحساب والهندسة وما إليها، والفلسفة و «الميتافيزيقا» (علم ما وراء الطبيعة).. على نحو ما نفعل نحن اليوم من إرسال بعوثنا إلى الغرب لتلقى العلم والتمرس به.

وفى الطور الثانى كانت العلوم الإسلامية واللغة العربية قد توغلت في قلب أوربا وأثرت فى الفكر الأوربى كله، آدابه وفنونه وعلومه وفلسفته، وفى الحضارة الأوربية كلها على وجه العموم، ولكن كان الشعور نحو الإسلام والمسلمين قد انقلب عداوة ضارية بشعة، فقد خشيت الكنيسة الأوربية على نفوذها من تأثير الإسلام فى الفكر الأوربى، فراحت تجند قواها كلها لتنفير الأوربيين المسيحيين من الإسلام، بتصويره لهم فى صورة منكرة لا يقبل عليها أحد، وكلفت كتابها وأدباءها وشعراءها وفنانيها أن يقوموا بهذا التشويه المتعمد (وخاصة بعد انتهاء

الحروب الصليبية بهزيمة منكرة)، وفى تلك الفترة لقب المسلمون بالوثنيين (!) والكفرة (!) وأعداء المسيح (!) ولقب الرسول ﷺ بأبشع النعوت التى سمحت « أخلاق » الكنيسة بإطلاقها على شخصه الكريم .

وفى الطور الثالث كان العالم الإسلامى قد ضعف ضعفاً شديداً لانصرافه التدريجى عن حقيقة دينه، وعن الأخذ بأسبابه، وتحول الدين فى حسه إلى مظاهر خاوية لا تقوم عليها أمة حقيقية . عندئذ انقضّت الصليبية المتربصة، تساندها الصهيونية بأموالها وعملائها، منتهزة هذه الفرصة التى كانت تتطلع إليها منذ قرون . . منذ أن ارتدت جيوش أوربا مهزومة فى الحروب الصليبية الأولى، فراحت – فى فرصتها الجديدة السانحة – تحتل بلدان العالم الإسلامى واحداً إثر الآخر، وتعيث فساداً فيه، وتكل جانبا من هذا الفساد إلى المنصرين (المبشرين) [1] يقومون فى مبدأ الأمر بمحاولة يائسة لتنصير المسلمين، ويفشلون فيها، ثم يقومون بالمحاولة الناجحة التى أشار إليها الأب زويمر، لصرف المسلمين عن التمسك ببقايا ما كانوا يتمسكون به من الإسلام، ودعم الاستعمار الصليبى، الحربى والسياسى والاقتصادى، عن هذا السبيل .

وفى الطور الرابع والأخير، القائم اليوم، تراجع التنصير عن صورته المكشوفة فى كثير من أرجاء العالم الإسلامى [2] ، ليلبس مسوح « العلم » و « البحث العلمى » بدلاً من مسوح الرهبان والمنصرين، ليؤثر على الطبقة المثقفة التى تتولى قيادة الأمة، ويكون أفعل فى صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام، وأقدر على التأثير فيهم من المنصرين المكشوفين الذين يثيرون حفيظة المسلمين بهجومهم السافر على الإسلام، فيدفعونهم بهذا الهجوم إلى التمسك بطرف من هذا الدين . ولكن الذى يجب الالتفات إليه أن كلا المنصرين الصرحاء والمستشرقين قد أخذ

---

(١) الأولى أن نستخدم كلمة « المنصرين » بدلا من « المبشرين » التى لا تبين حقيقة العمل الذى يقومون به .

(٢) مازال التنصير يبذل نشاطاً ضاريا فى أفريقيا وأندونيسيا وبنجلادش فضلاً عن استغلاله كوارث المسلمين فى كل مكان .

من ذات البضاعة التى كانت الكنيسة الأوربية قد أمرت بإعدادها أول مرة لتنفير أوربا من الإسلام، وصرفها عن التوجّه إليه، والتى آتت ثمارها فى أوربا أول مرة فصدتها عن الإسلام، ثم عادت الصليبية اليوم تستخدمها ضد المسلمين أنفسهم لتنفيرهم من الإسلام وصدهم عنه، حين وجدت الفرصة مهيأة للمحاولة.

وهذا الطور الأخير من أطوار الاستشراق هو موضوعنا فى هذا البحث، ولكنا لا نستطيع أن نقفز إليه قفزاً دون أن نمر مروراً سريعاً على الأطوار الثلاثة التى سبقته، لنعرف خط الزمن، ودلالة التاريخ..

* * *

فى العصور الوسطى الأوربية، التى تسميها أوربا بحق عصور الظلام، لم يكن فى الأرض كلها نور يسطع إلا النور الإسلامى والثقافة الإسلامية.

كان المسلمون قد مدوا فتوحاتهم شرقاً وغرباً حتى وصلوا من كلا الجانبين إلى المحيط، كما كانوا قد وصلوا إلى أوربا فأقاموا دولة عظيمة فى الأندلس، ونفذوا منها إلى جنوب فرنسا وصقلية وجنوب إيطاليا، وانتشروا فى بقاع أخرى متفرقة يحملون معهم في كل مكان روحهم العلمية المتوثبة التواقة إلى المعرفة.

ولم يكن «العلم» ذاته ميراثا عربيا ورثه المسلمون عن العرب فى الجاهلية، فما كان العرب فى الجاهلية يتجهون إلى شيء من المباحث العقلية أو العلمية، إنما كان همهم منصرفا إلى قول الشعر والتنافس فيه، وحفظ الأنساب للتفاخر بها فى الصراعات القبلية الصغيرة التى كانت تشغلهم. إنما كان العلم نتاجا إسلاميا، تولد فى نفوس المسلمين من توجيهات القرآن والسنة، وممارسة الحياة فى ظل الإسلام.

لقد وجه القرآن المسلمين إلي تدبر آيات الله في الكون، وأمرهم أن يسيروا فى الأرض لينظروا فى هذه الآيات:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ

مَوتها وَبَثَّ فيهَا من كُلِّ دَابَةٍ وَتصريفِ الرِّيَاحِ والسَّحَاب الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء والأَرْض لآيَات لِقَوْمٍ يَعْقلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] .

﴿قُلْ سيرُوا فِي الأَرْض فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] .

﴿وَفي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾

[الذاريات: ٢٠، ٢١].

ثم وجههم كذلك إلى أنه لا بد من ثمرة واقعية للمعرفة. فالمعرفة النظرية وحدها لا تكفى، سواء فى العقيدة ذاتها أو فى حياة الناس الواقعية:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً . . ﴾

[النحل: ٩٧].

﴿فأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا ما يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾

[الرعد: ١٧].

« . . وأعوذ بك من علم لا ينفع » (١) .

وهكذا تعلم المسلمون من الإسلام أمرين فى آن واحد: أن يبحثوا ويتدبروا فى آيات الخلق، ثم يخرجوا من بحثهم وتدبرهم بثمرة عملية تنفع الناس فى حياتهم. ومن ثم ولد المنهج التجريبى على أيدى المسلمين.

يقول بريفولت في كتاب « بناء الإنسانية Making of Humanity » :

« . . . فالعالم القديم – كما رأينا – لم يكن للعلم فيه وجود. وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها عن سواهم، ولم تتأقلم فى يوم من الأيام فتمتزج امتزاجاً كلياً بالثقافة اليونانية. وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات. ولكن أساليب البحث في دأب وأناة، وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها، والمناهج التفصيلية للعلم، والملاحظة الدقيقة المستمرة، والبحث التجريبى، كل ذلك كان

(١) من دعاء الرسول ﷺ.

غريباً تماماً عن المزاج اليونانى. أما ما ندعوه «العلم» فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة، من طرق التجربة والملاحظة والمقاييس، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان، وهذه الروح، وتلك المناهج العلمية، أدخلها العرب إلى العالم الأوربى» (١).

ويقول دريبر، الأستاذ بجامعة نيويورك فى كتابه «النزاع بين العلم والدين»:

«تحقق علماء المسلمين أن الأسلوب العقلى النظرى لا يؤدى إلى التقدم؛ وأن الأمل فى وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقوداً بمشاهدة الحوادث ذاتها. ومن هنا كان شعارهم فى أبحاثهم الأسلوب التجريبى، والدستور العلمى الحسى..» (٢).

وتقول زيجريد هونكة العالمة الألمانية فى كتابها «الله ليس كذلك» (٣).

«إن العالِمَ العربى قد صار بلا ريب – كما أفضنا في كتابنا «شمس الله تشرق على الغرب» – مؤسس علوم الكيمياء العضوية. هذا ولم يتردد العرب بحال من الأحوال فى امتحان الفروض اليونانية وإخضاعها لمعايير النقد العربية التجريبية – وكان معظم تلك الفروض لا أساس له سوى التخمين – لعديد من الاختبارات والتجارب، وصوبوا (٤) مئات ومئات من تلك الفروض العلمية الخاطئة، ولا بأس أن نكتفى هنا بثلاثة منها:

١ – خطأى جالينوس اللذين بينهما المشرّح العربى الطبيب عبد اللطيف أحد أطباء صلاح الدين الأيوبى وقد صوبهما (٥).

٢ – فساد نظرية جالينوس حول وجود ثقب فى الحجاب الحاجز بالقلب، وبيان أنها خيال محض، على يد ابن النفيس، الذى خلف عبد اللطيف فى رئاسة المستشفى بالقاهرة، وتصويبه (تصحيحه) إياها باكتشافه الدورة الدموية الصغرى.

---

(١) عن كتاب «تجديد الفكر الدينى» تأليف محمد إقبال، ترجمة عباس محمود ص ١٥٠.

(٢) عن كتاب «الإسلام دين علم خالد» ص ٢٣٣.

(٣) هكذا ترجم المترجم عنوان الكتاب وأظن أن المؤلفة تقصد أن إله المسلمين ليس كما يصفه الغربيون.

(٤، ٥) لعل المترجم يقصد التصحيح وليس التصويب.

٣ – خطأ نظريتى إقليد (إقليدس) وبطليموس الزاعمة أن العين تسلط نورها على المرئيات، بالتصويب (التصحيح) العبقرى لعالم البصريات ابن الهيثم مؤسس علم البصريات التجريبى، والذى وضع نظريات وقوانين عديدة فى علم البصريات، مقدماً لأوربا نظرية تكاد تكون متكاملة حول الأشعة، بما في ذلك الأسس التى يقوم عليها استخدام العدسات والمجاهر، وكافة أنواع المرايا وآلة التصوير بالتعتيم الشمسى وكشافات الضوء الكهربية وغير ذلك.

ولقد بلغت تلك العلوم والمخترعات والمكتشفات أوربا بواسطة الطرق الخمس التالية:

– عن طريق السفن والتجار وفرسان الحروب الصليبية وحجاج بيت المقدس والأماكن المقدسة للنصارى.

– صقلية العربية إبان خضوعها لحكم العرب مائتين وخمسين عاما دون انقطاع، وعن طريق بلاط صديق العرب الأكبر فيها القيصر فريدريك من آل هوهن شتاوفن.

– أسبانيا والبرتغال (الأندلس) حيث خضعتا للعرب ثمانمائة عام.

– مترجمات مدرسة الترجمة العليا فى طليطلة العربية.

– وعن طريق طلاب العلم المتنقلين بين الجامعات، والبعثات والوفود واليهود الجوالين والحجاج والتجار.

وكما قيل حقا فإن إنجازات علماء العرب من أطباء وكيميائيين ورياضيين وفلكيين ومخترعاتهم الفنية، التى وصلت إلى أوربا إبان إحكام آباء الكنيسة قبضتهم عليها ليزداد تخلفها من سيء إلى أسوأ؛ كل ذلك هطل على أوربا كالغيث على الأراضى الميتة فأحياها قرونا، وخصّبها إبان ذلك من نواح متعددة، ودفعها دفعا قويا لكى تباشر بحوثها الخاصة بها»[١].

* * *

(١) عن كتاب «الله ليس كذلك» ترجمة د. غريب محمد غريب، نشر دار الشروق بالقاهرة، الطبعة الأولى عام ١٤١٦ هـ – ١٩٩٥ م، ص ٨١ – ٨٢.

لقد أخذ المسلمون كل ثمار المعرفة السابقة التى وجدوها فى متناول أيديهم، ثم أنشأوا عليها – بحاستهم العلمية التى اكتسبوها من الإسلام – حركة علمية وثقافية ضخمة، ثم قاموا بعملية التحويل العظمى التى كتبت أبرز سطور التاريخ، وهى إدخال المنهج التجريبى فى البحث العلمى، أو تحويل المعرفة النظرية إلى واقع عملى.

كما قاموا بعملية «إنسانية» أخرى تعلموها من دينهم كذلك، هى فتح أبواب العلم لكل راغب فيه، بصرف النظر عن جنسه ولونه وعقيدته، ومن ثم فتحت جامعاتهم أبوابها للوافدين إليها من كل فج يتعلمون فيها كل ما يرغبون معرفته من العلوم.

وفي تلك الفترة توافد الطلاب من أوربا إلى الأندلس والشمال الافريقى – والمدارس الإسلامية الأخرى – يطلبون علوم المسلمين..

يقول الأستاذ «نجيب العقيقى» فى كتابه «المستشرقون» [١].

«أما الثقافة العربية، فيقول البار [٢] القرطبى فى كتاب «الدليل المنير»: وأقبل أهل مالقة على مصنفات المسلمين فى الأدب والفقه والفلسفة تثقفا بثقافتها – لا للرد عليها! – وبذلوا أموالا طائلة فى تأسيس مكتباتها. وينطبق قوله على المستعربين فى الأندلس قاطبة الذين جروا على عادات المسلمين فى نظام الحريم وختن الأولاد وإتقان العربية واستعمال حروفها لكتابة اللاتينية. ثم على الخاصة من النصارى وقد آثروا أسماء العرب ولغتهم وثقافتهم، وفي طليعة هؤلاء رجال الدين، فاختلفوا إلى مدارس المسلمين ومجامعهم ومكتباتهم، ثم قبعوا فى أديارهم [٣] ينقحون ذلك التراث ويترجمونه ويفسرونه ويصنفون فيه، ويذيعونه بين الرهبان وطلاب العلم، فينتشر انتشاراً سريعاً بفضل مدارسهم فى أديار:

---

(١) يعتبر هذا الكتاب أشمل موسوعة عربية تسجل أسماء المستشرقين وأعمالهم وتاريخهم، وإن كانت لا تشتمل على تقويم نقدى لأعمال المستشرقين إلا سطوراً فى آخر الكتاب.

(٢) اسمه بلغته الأصلية «الفارو» وقد عربه مؤلف الكتاب. (٣) يقصد الأديرة.

« ريبـول » – حـيث تعلم الأب « جـربر » وترجم إلى اللاتينيـة من مـخطوطات مكتبتها المصنفات الرياضية والفلكية كالزيج المنصورى – و« سان كوجات » و« سان ميليان » و« ثيلانوبا »، وسائر مدارس المستعربين فى قرطبة. ومنذ القرن العاشر حملت الكاتدرائيات العبء الأكبر عن الأديار، فذاعت شهرة مدارس « أوبيدو » و« ليون » و« بيك » و« خيرونا » و« برشلونة » و« سانتياجو دى كوبو ستيلا » وقامت مثيلات لها فى « باريس » و« شارتر » و« أورليان » و« تور » و« لاؤن » و« ريمس »، وفى كبرى مدن إيطاليا وانجلترا وبلجيكا وغيرها. ثم أنشأ الرهبان الفرنسيسكانيون ديرعكا (١٢٢١ م) وعلّم العربيةَ فيه الأب « روبرك » ومدرسة ميرامار (١٢٧٦ م) فأشرف عليها « رايموندو لوليو » خلال عشر سنوات، وتعلم العربية فيها أحد عشر راهبا، وقد عاون « لوليو » « رايموندو مارتينى » الدومينيكى، وأستأنف نشاطه « دي ليرا » الفرنسيسكانى فى القرن الرابع عشر. وقرر مجمع طليطلة (١٢٥٠ م) الإنفاق على ثمانية من الزهبان الدومينيكيين على رأسهم « رايموندو مارتينى » كانوا قد انقطعوا لدراسة العربية، وصنف أحدهم أول معجم عربى أسبانى (١٢٣٠ م) خلا نفر من زملائهم رسلوا إلى باريس لتعلم اليونانية والعربية والعبرية فيها (١٢٥٥ م) ثم كلفهم مجمع بلنسية (١٢٥٩ م) تأسيس مدرسة للعربية والعبرية فى قطلونيا (١٢٦١ م). وقد صنف أحدهم – « غليوم الطرابلسى » – كتابا عن الإسلام أهداه إلى من أصبح البابا « غريغوريوس » (١٢٧١ – ١٢٧٦ م) وألف « دى مونتى كروسيس » كتابا من عقائد تركيا والتتر.

« وانتشرت مدارس الرهبان فى أشبيلية (١٢٥٠ م) وميورته (١٢٥٥ م) وبرشلونه (١٢٥٩ م) وبلنسية (١٢٨١ م) وجانيفا (١٢٩١ م) وقد تطور بعض مدارس الكاتدرائيات إلى جامعات ونالت على غرارها حقها المعلوم فى مساعدة البابوات والملوك.

« وكان دون رايموند الأول رئيس أساقفة طليطلة (١١٢٦ – ١١٥١) قد أنشأ فيها مكتب المترجمين (١١٣٠ م) فنقل المسلمون واليهود والنصارى إلى

اللاتينية أمهات كتب الرياضيات والفلك والطب والكيميا والطبيعة والتاريخ الطبيعي وما وراء الطبيعة وعلم النفس والمنطق والسياسة، ومن أشهرها أورجانون أرسطو بشروح الكندي والفارابي وابن سينا والغزالي ومختصراتهم له، ومؤلفات إقليدس وبطليموس وجالينوس وأبقراط، بشروح الخوارزمي والبتاني والبطروجي، كما نقلوا الكثير من مصنفات علماء العرب واليهود، ومن أشهر المترجمين: «جونثالث»، و«يوحنا بن داود الأسباني»، و«يوحنا الإشبيلي»، و«روبرت أوف تشستر»، و«هرمان الدلماطي»، و«اوجودى سانتالا» و«أفلاطون التيفولي»، و«ساراشل» وغيرهم. وبفضل مكتب الترجمة والمدارس والمكتبات ظلت طليطلة طوال قرنين ملتقى طلاب العلم من انجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا، يفدون عليها وينهلون من الثقافة العربية فيها ثم يرجعون إلى بلدانهم فيذيعونها بين أهلها..

«وعبرت الثقافة العربية – بفضل الرهبان، ولاسيما الملتحقين بدير كلونى، واللاجئين إلى فرنسا – جبال البرانس والألب إلى فرنسا وإيطاليا وانجلترا وألمانيا وغيرها، ثم استقرت فى أشهر مراكزها..

«وأفاد البرتغاليون من علوم العرب في الرياضيات والفلك والخرائط والجغرافيا، وكان أبو الحسن قد وضع الاسطرلاب وخرائط الجزيرة الأيبرية فنقلها علماء قطالونيا إلى البرتغال – وبناء السفن. فاستدعى الأمير هنرى خبراء العرب بعلم البحار، واصطنع طرازاً من سفنهم فى اكتشافاته، وحقق رحلة ماركو بولو على رحلة ابن بطوطة، واستعان فاسكو داجاما بابن ماجد لهديه فى مجاهل المحيط الهندى، فنسب بعض المؤرخين اكتشاف طريق الهند إلى البرتغال والعرب...

«وبدأ الاستشراق أكثر ما يكون تنظيماً وانتشاراً واستمراراً بالفاتيكان: بأباواتٍ وأساقفةً ورهباناً، واصطناعَ نفوذهم فى سبيله لدى الملوك والأمراء والبلديات، والإفادة منه فى الرد على البروتستانتية بعد انفصالها عنهم، مما جعله لغايات منوعة، بوسائل متعددة، فى أرجاء شاسعة.

«وكان رجال الدين، ومرجعهم الفاتيكان يومئذ، يؤلفون الطبقة المتعلمة

فى أوربا، ولا سبيل إلى إرساء نهضتها إلا علي أساس من التراث الإنسانى الذى تمثلته الثقافة العربية، فتعلموا العربية، ثم اليونانية، ثم اللغات الشرقية، للنفوذ منها إليه . . . » .

ثم يضع المؤلف تحت عنوان « طلائع المستشرقين » تعريفا بعدد من المستشرقين البارزين فى هذا العهد يبلغ تسعة وعشرين اسما من بينهم روجر بيكون الشهير، نختار منها بعض النماذج لدلالتها :

« جربر دى أورالياك Jerbert de Oraliac » (٩٣٨ – ١٠٠٣ م) .

« من الرهبانية البندكتية (المؤسسة عام ٥٢٩ م) قصد الأندلس، وأخذ من أساتذتها فى مدارس ريبول وإشبيلية وقرطبة، حتى أصبح أوسع علماء عصره ثقافة بالعربية والرياضيات والفلك . ولما ارتحل إلى روما سما على أقرانه وانتخب حبرا أعظم باسم سلفستر الثانى (٩٩٩ – ١٠٠٣ م) فكان أول بابا فرنسى، وقد أمر بإنشاء مدرستين عربيتين، الأولي فى روما مقر خلافته [١]، والثانية فى رايمس وطنه، ثم أضيف إليها مدرسة شارتر . . » .

« أدلرد أوف باث Adelard of Bath » (١٠٧٠ – ١١٣٥ م) .

« ولد فى مدينة باث ونسب إليها، وانخرط فى سلك الرهبانية البندكتية، وطلب العلم فى تور والأندلس وصقلية . . وعند عودته إلى إنجلترا عين معلماً للأمير هنرى الذى أصبح فيما بعد هنرى الثانى، وقد أهدى إليه أحد كتبه، واشتهر باختباره سرعة الضوء والصوت، وتضلعه فى ثقافة العرب الذين آثر مذهبهم فى العلم على مذهب الفرنجة، فقال في كتابه « المسائل الطبيعية » وهو محاورة بينه وبين أخيه خريج جامعات الفرنجة : إننى – وقائدى هو العقل – قد تعلمت من أساتذتى العرب غير الذى تعلمته أنت، فبهرتك مظاهر السلطة بحيث وضعت فى عنقك لجاما تقاد به قياد الإنسان الحيوانات الضارية، ولا تدرى لماذا ولا إلى أين . فقد منح الإنسان العقل لكى يفصل به بين الحق

---

(١) هكذا عبر المؤلف عن مقر البابوية فى روما !

والباطل.. فعلينا بالعقل أولا، فإذا اهتدينا إليه – لا قبل ذلك – بحثنا في السلطة، فإن سايرت العقل وإلا فلا...» [1].

أما روجر بيكون الشهير فهو الذى قال عنه بريفولت فى كتاب «بناء لإنسانية Making of Humanity» :

«وإن روجر بيكون درس اللغة العربية، والعلم العربى فى مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه العرب فى الأندلس. وليس لروجر بيكون، ولا لسميه فرنسيس بيكون الذى جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى؛ فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية. وهو لم يملّ قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة..» [2].

وفى النماذج السابقة ما يكفى لإعطاء صورة للطور الأول من أطوار الاستشراق، حيث كان المسيحيون الأوروبيون يتعلمون – فى أدب – علوم المسلمين، ليتثقفوا بالثقافة الحقيقية، وليحاولوا بناء نهضتهم على أساس متين.

يقول بريفولت :

«لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية (يقصد الإسلامية !) على العالم الحديث، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج.. إن العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب فى أسبانيا لم تنهض فى عنفوانها إلا بعد وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام. ولم يكن العلم وجده هو الذى أعاد الحياة إلى أوربا. بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة شعتها إلى الحياة الأوربية. فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحى الازدهار الأوربى إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون، وأهم ما تكون، فى نشأة

---

(١) مقتطفات من كتاب «المستشرقون» الجزء الأول من ص ١٢٠ – ١٢٢ .

(٢) عن كتاب «تجديد الفكر الدينى فى الإسلام» تأليف محمد إقبال، ترجمة عباس محمود ص ١٢٨ .

تلك الطاقة التى تكوّن ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة، وفى المصدر القوى لازدهاره، أى فى العلوم الطبيعية وروح البحث العلمى » [١] .

* * *

هذا الطور – على أهميته البلغة في تاريخ أوربا، وتاريخ البشرية كلها – لم يستمر على حالته هذه طويلا مع الأسف ! ولقد كان قمينا – لو سارت الأمور فى طريقها الطبيعى – أن يفتح قلب أوربا للإسلام، ويفتح بصيرتها على الهدى الربانى، فتترك ما كانت غارقة فيه من انحرافات عقدية وفكرية صنعتها الكنيسة الأوربية، وزعمت أنها من دين الله.

يقول الأستاذ أحمد أمين فى كتابه « ضحى الإسلام » (ص ١٦٤ – ١٦٥) :

« ظهر بين النصارى نزعات يظهر فيها أثر الإسلام. من ذلك أنه فى القرن الثامن الميلادى – أى القرنين الثانى والثالث الهجريين – ظهرت فى سبتمانيا Septmania (مقاطعة فرنسية قديمة فى الجنوب الغربى لفرنسا على البحر الأبيض المتوسط) حركة تدعو إلى إنكار الاعتراف أمام القسيس، وأنه ليس للقسس حق فى ذلك، وأن يضرع الإنسان إلى الله وحده فى غفران ما ارتكب من إثم. والإسلام ليس له قسيسون ورهبان وأحبار، فطبيعى ألا يكون فيه عتراف.

وكذلك قامت حركة تدعو إلى تحطيم الصور والتماثيل الدينية Iconoclast) . ذلك أنه فى القرن الثامن والتاسع للميلاد – أى فى القرن الثالث والرابع الهجريين – ظهر مذهب نصرانى يرفض تقديس الصور والتماثيل فقد أصدر الامبراطور الرومانى « ليون الثالث » أمراً سنة ٧١٦ م يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل، وأمرا آخر فى سنة ٧٣٠ يعدّ الإتيان بهذا وثنية. كذلك كان قسطنطين الخامس وليو الرابع، على حين كان البابا « جريجورى » الثانى والثالث و« جرمانيوس » بطريرك القسطنطينية، والإمبراطورة « إيرينى » من مؤيدى عبادة الصور. وجرى بين الطائفتين نزاع شديد لا محل لتفصيله. وكل ما نريد أن نذكره أن بعض المؤرخين يذكر أن الدعوة إلى نبذ الصور والتماثيل كانت متأثرة

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٩ .

بالإسلام. ويقولون إن كلوديوس Claudius أسقف نورين (الذى عين سنة ٨٢٨م وحول ٢١٣ هـ) والذى كان يحرق الصور والصلبان، وينهى عن عبادتها فى أسقفيته، ولد وربّى فى الأندلس الإسلامية.

«كذلك وجدت طائفة من النصارى شرحت عقيدة التثليث بما يقرب من الوحدانية، وأنكرت ألوهية المسيح».

ويقول المؤرخ البريطانى «ويلز»: «لو تهيأ لرجل ذى بصيرة نفاذة أن ينظر إلى العالم فى مفتتح القرن السادس عشر، فلعله كان يستنتج أنه لن تمضى إلا بضعة أجيال قليلة، لا يلبث بعدها العالم أجمع أن يصبح مغوليا، وربما أصبح إسلاميا. ولكن الريح غيرت اتجاهها..»[١].

غيرت الريح اتجاهها لسببين اثنين فى آن واحد.. السبب الأول أن الأمة الإسلامية أخذت تدلف إلى إغفاءة طويلة، ليس هنا مجال شرح أسبابها[٢]، والثانى أن تغلغل المفاهيم الإسلامية فى أوربا أزعج الكنيسة إزعاجاً شديداً، فقامت تنافح عن نفسها وعن نفوذها، بوسيلتين اثنتين، إحداهما محاكم التفتيش، والأخرى أنها جندت رجالها لتشويه صورة الإسلام فى نفوس الناس، لتنفيرهم منه، وإبعادهم عنه.

ولنأخذ صورة من تأثر النصارى فى الأندلس فى القرن التاسع بالإسلام والثقافة الإسلامية، ولنتصور على ضوئها كيف كانت الصورة فى أوربا حين انتشرت هذه الثقافة – عن طريق الترجمة – فى القرون التالية.

يقول جرونيباوم فى كتابه «حضارة الإسلام»:

«ولقد أهمل الأسبان المسيحيون فى القرن التاسع تراثهم القديم إيثاراً منهم للتراث العربى، وهذا ألفارو – الكاتب المسيحى المتعصب – يأسى فى سنة ٨٥٤

---

(١) ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر، جـ٣ ص ٩٦٦.

(٢) شرحت هذه الأسباب فى كتاب «واقعنا المعاصر» فصل «خط الانحراف» و«آثار الانحراف».

لهذا الاتجاه أسى مريرا (فيقول) : « يطرب إخوانى المسيحيون لأشعار العرب وقصصهم. فهم يدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة المحمديين لا لتفنيدها. بل للحصول على أسلوب عربى صحيح رشيق. فأين تجد اليوم علمانيا [1] يقرأ التعليقات اللاتينية على الكتب المقدسة؟ وأين ذلك الذى يدرس الإنجيل وكتب الأنبياء والرسل؟ وأسفا: إن شباب المسيحيين الذين هم أبرز الناس مواهب ليسوا على علم بأى أدب ولا أية لغة غير العربية؛ فهم يقرأون كتب العرب ويدرسونها بلهفة وشغف، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات باهظة. وإنهم ليترنمون فى كل مكان بمدح تراث العرب. وإنك لتراهم من الناحية الأخرى يحتجون فى زراية إذا ذكرت الكتب المسيحية بأن تلك المؤلفات غير جديرة بالتفاتهم. فواحر قلباه! لقد نسى المسيحيون لغتهم، ولا يكاد يوجد منهم واحد فى الألف قادر على إنشاء رسالة إلى صديق بلاتينية مستقيمة ! ولكن إذا استدعى الأمر كتابة بالعربية، فكم منهم من يستطيع أن يعبر عن نفسه فى تلك اللغة بأعظم ما يكون من الرشاقة . بل قد يقرضون من الشعر ما يفوق فى صحة نظمه شعر العرب أنفسهم » [2] .

هكذا كان التأثير فى الأندلس، ولا نتوقع بطبيعة الحال أن تكون الصورة هى ذاتها فى بقية أوربا، ولكن التأثير العائد مع الطلاب المبتعثين إلى المدارس الإسلامية فى الأندلس وغيرها كان من العمق بحيث أزعج الكنيسة إزعاجاً شديدا، فلجأت – كما أشرنا آنفا – إلى إجراءات حادة وعنيفة لوقف التأثير الإسلامى، ولنذكر أنها وقفت موقفا شبعا من العلماء الذين قالوا بكروية الأرض، وأن الأرض ليست مركز الكون، ليس فقط خوفا من تأثير « العلم » على « الخرافة » التى كانت تعيش بها الكنيسة، ولكن لأن هذه العلوم كانت إسلامية فى أصلها، فكانت تمثل – فى نظر الكنيسة – غزواً فكرياً إسلامياً يجب التصدى له بكل قوة

---

(١) لعله يقصد رجل علم أو طالب علم .

(٢) فون جرونيباوم، حضارة الإسلام، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، ص ٨١ – ٨٢ م طبع القاهرة ١٩٥٦ .

حتى لا يمتد أثره فى الناس! فلذلك أحرقت جوردانو برونو حيا، وحكمت على كوبرنيكوس بالحرق لولا أنه مات قبل تنفيذ الحكم فيه. أما جاليليو فقد تظاهر بالردة لما صدر الحكم بحرقه حيا، ولكنه – فى فراش الموت – ظل يردد: الأرض كروية! الأرض كروية! حتى مات!

* * *

ولكن هذا العامل على شدته لم يكن هو وحده المؤثر فى رسم صورة هذا الطور الثانى من أطوارالاستشراق، فقد كانت الحروب الصليبية، وما انتهت إليه من الهزيمة الساحقة، عاملا مؤثرا شديد التأثير.

يقول محمد أسد فى كتابه «الإسلام على مفترق الطرق»:

«إن الاصطدام العنيف الأول بين أوربة المتحدة من جانب وبين الإسلام من الجانب الآخر – أى الحروب الصليبية – يتفق مع بزوغ فجر المدنية الأوربية. فى ذلك الحين أخذت هذه المدنية – وكانت ما تزال على اتصال بالكنيسة – تشق سبيلها الخاص بعد تلك القرون المظلمة التى تَبِعَتْ انحلال رومية. حينذاك بدأت آداب أوربا ربيعا منوراً جديداً. وكانت الفنون الجميلة قد بدأت بالاستيقاظ ببطء من سبات خلفته هجرات الغزو التى قام بها القوط والهون والآفاريون. ولقد استطاعت أوربة أن تتملص من تلك الأحوال الخشنة فى أوائل القرون الوسطى، ثم اكتسبت وعياً ثقافياً جديداً، وعن طريق ذلك الوعى كسبت أيضاً حساً مرهفا [1]. ولما كانت أوربة فى وسط هذا المأزق الحرج، حملتها الحروب الصليبية على ذلك اللقاء العدائى بالعالم الإسلامى. لقد كانت ثمت حروب بين المسلمين والأوروبيين قبل عصر الحروب الصليبية. كانت فتوح العرب فى صقلية والأندلس، وكان هجومهم على جنوب فرنسة. ولكن هذه المعارك كانت قبل أن تستيقظ أوربة إلى وعيها الثقافى الجديد، فاتسمت من أجل ذلك، ومن وجهة النظر الأوربية على الأقل، بطابع ذى نتائج محلية، ولم تكن تلك المعارك قد

(١) كان ذلك من أثر الاحتكاك بالحضارة الإسلامية كما سيذكر المؤلف بعد قليل.

فهمت بعد على وجهها الحقيقى. إن الحروب الصليبية هى التى عينت فى المقام الأول والمقام الأهم موقف أوربة من الإسلام لبضعة قرون تتلو. ولقد كانت الحروب الصليبية فى ذلك حاسمة لأنها حدثت أثناء طفولة أوربة فى العهد الذى كانت فيه الخصائص الثقافية الخاصة قد أخذت تعرض نفسها [١]، وكانت ما تزال فى طور تشكلها. والشعوب كالأفراد، إذا اعتبرنا أن المؤثرات العنيفة التى تحدث فى أوائل الطفولة تظل مستمرة ظاهراً أو باطناً مدى الحياة التالية. وتظل تلك المؤثرات محفورة حفراً عميقاً، حتى إنه لا يمكن للتجارب العقلية فى الدور المتأخر من الحياة، المتسم بالتفكير أكثر من اتسامه بالعاطفة أن تمحوها إلا بصعوبة، ثم يندر أن تزول آثارها تماماً. وهكذا كان شأن الحروب الصليبية، فإنها حدثت أثراً من أعمق الآثار وأبقاها فى نفسية الشعب الأوربى. وإن الحمية الجاهلية العامة التى أثارتها تلك الحروب فى زمنها لا يمكن أن تقارن بشىء خبرته أوربة من قبل، ولا اتفق لها من بعد [٢]. لقد اجتاحت القارة الأوربية كلها موجة من النشوة، كانت - فى مدة ما على الأقل - عنفوانا تحطى الحدود التى بين البلدان والتى بين الشعوب والتى بين الطبقات. ولقد اتفق فى ذلك الحين، وللمرة الأولى فى التاريخ، أن أوربة أدركت فى نفسها وحدة - ولكنها وحدة فى وجه العالم الإسلامى. ويمكننا أن نقول من غير أن نوغل فى المبالغة إن أوربة ولدت من روح الحروب الصليبية. لقد كان ثمت قبل ذلك الزمن أنجلو سكسون وجرمان وفرنسيون ونورمان، وإيطاليون ودنماركيون وسلاف، ولكن فى أثناء الحروب الصليبية ولدت فكرة «المدنية الغربية» وأصبحت هدفاً واحداً تسعى إليه جميع الشعوب الأوربية على السواء. وكانت تلك المدنية الغربية عداوة للإسلام وقفت عرّابا [٣] فى هذه الولادة الجديدة.

---

(١) يقصد بدأت تتشكل.

(٢) سبقت بعد هذا قولاً مشابهاً للمستشرق الكندى المعاصر ولفرد كانتول سميث فى كتابه «الإسلام فى التاريخ الحديث».

(٣) وكيل الطفل المعمد بالتعبير الكنسى.

« . . . إن الفظائع المروعة التى اقترفها الفرسان الصليبيون الأتقياء، وإن التخريب والانحطاط اللذين خلفوهما فى بلاد الإسلام[1] التى اجتاحوها ثم خسروها، كل هذه هى التى أنبتت البذور السامة لعداوة طويلة الأمد، ولصلات متحرجة بين الشرق والغرب. ولولا ذلك لما كان ثمت ضرورة إلى مثل هذا الشعور. ثم لو أن الحضارتين الإسلامية والغربية كانتا – كما نعتقد – مختلفتين تماماً في أسسهما الروحية ونظامهما الاجتماعى، لوجب أن تكونا قادرتين على التسامح فيما بينهما والعيش جنبا إلى جنب على اتصال ودى. ولقد كان فى الجانب الإسلامى دائماً رغبة مخلصة للتسامح المتكافىء، وللاحترام. وحينما أرسل الخليفة هرون الرشيد إلى الإمبراطور شارلمان كانت هذه الرغبة هى التى تحدو به إلى ذلك، ولم يكن ذلك عن مجرد رغبة فى الاستفادة المادية من صداقة الفرنجة. أما أوربة فكانت فى ذلك الحين، من الناحية الثقافية، فطرية إلى حد أنها لم تقدر هذه الفرصة حق قدرها، وإن كانت لم تبد لها كرها. وأخيراً ظهر الصليبيون فجأة عند الأفق وقطعوا هذه الصلات بين الإسلام والغرب. ولم يكن ذلك لأن الصليبيين راموا الحرب، فإن حروباً كثيرة كانت قد نشبت بين الشعوب ثم نسيت فيما بعد فى مدى التاريخ الإنسانى، وكم من عداوة انقلبت بعد ذلك صداقة. إلا أن الشر الذى بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح، ولكنه كان قبل كل شىء، وفى مقدمة كل شىء، شراً ثقافياً. **لقد نشأ تسميم العقل الأوربى مما شوهه قادة الأوربيين من تعاليم الإسلام ومثله العليا أمام الجموع الجاهلة فى الغرب**. وفى ذلك الحين نبز الرسول « محمد » بقولهم « كلبى » [Ma hound . وازن بين صورة Mahomed وصورة Mahound . إن ما، ضمير الملك للمتكلم (ضمير جر) و Hound هاوند من هوند Hund الجرمانية بمعنى الكلب. وقد كان أولئك النابزون يتلاعبون بظاهر اللفظتين. ماهومد وماهوند].

« لقد بذرت بذور البغضاء. إن حمية الصليبيين الجاهلية كان لها ذيولها فى

---

(١) انظر ما يحدث الآن فى كوسوفا وما حدث فى البوسنة والهرسك من قبل ! .

أماكن كثيرة من أوربة، فشجع ذلك نصارى الأندلس على الحرب لإنقاذ بلادهم من غير الوثنيين، وأما تدمير أسبانية المسلمة (الأندلس) قد اقتضى قرونا طويلة حتى تم. ولما تطاول أمد هذا القتال أخذ الشعور ضد الإسلام فى أوربة ينشب جذوره ثم يثبت. ولقد انتهى باستئصال شأفة العهد الإسلامى فى أسبانية بعد اضطهاد بالغ فى الوحشية والقسوة مما لم يشهده العالم قط، وإن كانت أصداء الفرح قد تجاوبت فى أوربة على إثر ذلك، مع العلم بأن نتائج ذلك كانت القضاء على العلوم والثقافة، والتبدل بهما جهل العصور الوسطى وخشونتها.

« ولكن قبل أن يتاح لصدى هذه الحوادث أن يخفت فى أسبانية حدث حدثٌ ثالث عظيم الأهمية زاد فى فساد الصلات بين العالم الغربى وبين الإسلام؛ ذلك هو سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك. لقد كانت أوربة ترى بقية الزهو اليونانى والرومانى القديم على بيزنطيوم (القسطنطينية) وكانت تنظر إليها على أنها حصن أوربا ضد « برابرة » آسية. وبسقوط القسطنطينية فتح باب أوربة على مصراعيه للسيل الإسلامى. وفي القرون التى تلت والتى امتلأت بالحروب لم تبق عداوة أوربة للإسلام قضية ذات أهمية ثقافية فحسب، بل ذات أهمية سياسية أيضا. وهذا زاد فى اشتداد تلك العداوة.

« ومع هذا كله فإن أوربة قد استفادت كثيراً من هذا النزاع. إن « النهضة » أو إحياء الفنون والعلوم الأوربية باستمدادها الواسع من المصادر الإسلامية والعربية على الأخص، كانت تعزى فى الأكثر إلى الاتصال المادى بين الشرق والغرب. لقد استفادت أوربا أكثر مما استفاد العالم الإسلامى، ولكنها لم تعترف بهذا الجميل، وذلك بأن تنقص بغضاءها للإسلام، بل كان الأمر على العكس، فإن تلك البغضاء قد نمت مع تقدم الزمن ثم استحالت عادة. ولقد كانت هذه البغضاء تغمر الشعور الشعبى كلما ذكرت كلمة « مسلم »، ولقد نزلت فى الأمثال السائرة عندهم حتى نزلت فى قلب كل أوربى رجلا كان أو امرأة. وأغرب من هذا كله أنها ظلت حية بعد جميع أدوار التبدل الثقافى. ثم جاء عهد الإصلاح الدينى حينما انقسمت أوربا شيعا، ووقفت كل شيعة مدججة

بسلاحها فى وجه كل شيعة أخرى، ولكن العداء للإسلام كان عامًّا فيها كلها، **بعد ذلك جاء زمن أخذ الشعور الدينى فيه يخبو، ولكن العداء للإسلام استمر**»[1].

* * *

أما «ولفرد كانتول سميث» المستشرق الكندى المعاصر فيقول فى كتابه «الإسلام فى التاريخ الحديث Islam in Modern History»:

«إلى أن قام كارل ماركس، وقامت الشيوعية، كان النبى [ﷺ][2] هو التحدى الحقيقى الوحيد للحضارة الغربية، الذى واجهته فى تاريخها كله. وإنه لمن المهم أن نتذكر كم كان هذا التحدى حقيقياً، وكم كان يبدو فى وقت من الأوقات تهديداً خطيراً حقاً.

«لقد كان الهجوم مباشراً فى كلا الميدانين الحربى والعقدى، وكان قوياً جداً. ولا شك أنه بالنسبة للمسلمين يبدو أنه الحق والصواب، والأمر الطبيعى والمحتوم، أن يمتد الإسلام كما امتد. ولكن الأمر كان مختلفا بالنسبة للشخص الواقع خارج نطاق الإسلام، الذى لم يكن يرى فيه شيئاً من هذا كله، والذى كان التوسع الإسلامى يقع على حسابه. وقد كان هذا التوسع إلى حد كبير يقع على حساب الغرب. فقد فقدت المسيحية دفعة واحدة «أجمل مقاطعات الإمبراطورية الرومانية» لتتسلمها منها القوة الجديدة، وكانت فى خطر من ضياع الإمبراطورية بكاملها. وعلى الرغم من أن القسطنطينية لم تقع – تماماً – فى يد الجيوش العربية كما وقعت مصر وسوريا، فقد استمر الضغط عليها فترة طويلة. وفى موجة التوسع الإسلامى الثانية وقعت القسطنطينية بالفعل سنة ١٤٥٣؛ وفى قلب أوربا المفزعة ذاتها أحاط الحصار بفينا سنة ١٥٢٩، بينما ظل الزحف – الذى بدا عنيدا لايلين – مستمراً فى طريقه. وحدث ذلك مرة أخرى فى وقت قريب لم يتطاول عليه العهد فى سنة ١٦٨٣؛ وإن وقوع تشيكوسلوفاكيا فى قبضة الشيوعية عام ١٩٤٨، لم يكن له قط فى العصر الحديث ذلك الفزع فى

(١) الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ ص ٥٢ – ٥٨.

(٢) يقصد الإسلام، والأقواس الشارحة من عندنا.

نفوس الغرب المتهيب؛ كما كان لذلك الزحف المستمر قرنا بعد قرن، من تلك القوة الضخمة المهدِّدة، التى لا تكف ولا تهدأ، ويتكرر انتصارها مرة بعد مرة.

« وكما هو الأمر مع الشيوعية، كذلك كان التهديد والانتصارات [الإسلامية] قائمين فى عالم القيم والأفكار أيضاً. فقد كان الهجوم الإسلامى موجها إلى عالم النظريات كما هو موجه إلى عالم الواقع. وقد عملت العقيدة الجديدة بإصرار على إنكار المبدأ الرئيسى للعقيدة المسيحية، التى كانت بالنسبة لأوربا العقيدة السامية التى أخذت – فى بطء – تبنى حولها حضارتها. وكان التهديد الإسلامى موجها بقوة وعنف، وكان ناجحاً نجاحاً مكتسحاً فى نصف العالم المسيحى تقريباً. والإسلام هو القوة الإيجابية الوحيدة التى انتزعت من بين المسيحيين أناساً دخلوا فى الدين الجديد وآمنوا به.. بعشرات الملايين، وهو القوة الوحيدة التى أعلنت أن العقيدة المسيحية ليست مزيفة فحسب، بل إنها منفرة كذلك.

«وإنه لمن المشكوك فيه أن يكون الغربيون – حتى أولئك الذين لا يدركون إطلاقاً أنهم اشتبكوا فى مثل هذه الأمور – قد تغلبوا قط عل آثار ذلك الصراع الرئيسى المتطاول الأمد.. أو على آثار الحروب الصليبية التى استغرقت قرنين من الحرب «العقدية» العدوانية المريرة» (١).

وتكفى هذه المقتطفات لرسم ملامح تلك الفترة من التاريخ، وآثارها فى موقف الغرب من الإسلام، كما أنها تستطيع أن تمد خيالنا بصورة لما يمكن أن يكون قد كتب عن الإسلام يومئذ بأقلام «المستشرقين» (٢).

---

(١) ولفرد كانتول سميث، الإسلام فى التاريخ الحديث، الطبعة الرابعة، سنة ١٩٦٦، مطبعة جامعة أكسفورد، ص ١٠٥ – ١٠٦ من الأصل الإنجليزى.

(٢) لم تكن البغضاء ولا سوء الأدب فى الحديث عن الإسلام ورسوله ﷺ والمسلمين مقتصرا على رجال الدين الصليبيين وإنما تعداهم إلى الكتاب والأدباء، فدانتى فى الكوميديا الإلهية يتوقح على الرسول ﷺ ويضعه فى جهنم مع الكفار، وشرفانتس مؤلف قصة دون كيشوت يقول عنه «النبى الكذاب» وفولتير يصفه بأقبح النعوت.. هذا إلى مئات من الكتب ألفت لتشويه صورة الإسلام والمسلمين، ووصف الحياة الإسلامية بأبشع الأوصاف.

ثم جاء الطور الثالث يسير مع خط التاريخ . .

أخذ العالم الإسلامى فى الضعف والجمود، بعد فترة النشاط والقوة والتفتح الحىّ فى جميع المجالات.

كان الأتراك بعد دخولهم الإسلام قد وضعوا كل عبقريتهم الحربية والسياسية فى خدمة العقيدة التى اعتنقوها، وامتدت رقعة الإسلام على أيديهم فى أوربا خاصة، وأسلم على أيديهم ملايين من البشر فى شرق القارة الأوربية، ولكن الإسلام ذاته تحول على أيديهم إلى تقاليد تراعى لذاتها دون أن يكون لها ذخرها الحىّ فى حياة الناس، فضلا عن انتشار الفرق الصوفية التى تعيش حياتها الوجدانية الباطنة دون أن تلتفت إلى الواقع المعاش، لتحوله إلى واقع إسلامى صالح راشد. كما رفض الأتراك إعادة فتح باب الاجتهاد – تحرجا من الاجتهاد – فظل الفقه جامدا على ما كان عليه من قرون مضت، بينما الفقه فى هذا الدين دائب متجدد، تستجد فيه الأقضية (أى الأحكام) بقدر ما يجد للناس فى واقع حياتهم من القضايا كما قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه بروحه الصافية وذهنه الثاقب. ومهمته الدائمة التى لا تنتهى ولا يقفل باب الاجتهاد فيها هى – من جانب – تغطية الحياة النامية المتجددة بتفريعات من الأصول الثابتة فى شريعة الله، ومن جانب آخر لمّ الحياة الواقعية للناس فى إطار الشريعة لكى لا تشرد عن منهج الله. فإذا ما أقفل باب الاجتهاد، فالنتيجة إما أن تجمد الحياة وتتوقف عن النمو، وإما أن يشرد الناس بعيداً عن المنهج الربانى. وقد حدث هذا وذاك بالتدريج فى القرون الأخيرة من حياة المسلمين.

وأهملت العلوم التى كان المسلمون أصحابها وأساتذتها من قبل (بينما أخذت هذه العلوم ذاتها تنمو وتترعرع فى أيدى الصليبيين الذين تتلمذوا على المسلمين من قبل وأخذوا عنهم مفاتيح المعرفة فى الجامعات الإسلامية) فتأخرت حال المسلمين فى ميادين الحياة العملية بقدر ما تقدمت أوربا فى تلك الميادين.

ولم يفت الصليبية المتربصة ولا الصهيونية الحاقدة أن تنتهز هذه الفرصة السانحة للانقضاض.

لم تكن أوربا قد نسيت بعد مرارة هزيمتها فى الحروب الصليبية، ولا مرارة الحقد الذى أحسته من توغل الإسلام فى أقطار أوربا ذاتها (بل يقول ولفرد كانتول سميث إن أوربا لم تنس ذلك حتى اليوم بعد انقضاء كل هذه القرون!).

ولم يكن متوقعا أن تتوانى الصليبية المتربصة عن انتهاز هذه الفرصة المواتية من كل جانب، فبينما تتزايد قوتهم المادية والحربية تتناقص قوة المسلمين، وبينما ينتشر العلم عندهم يخيم الجهل على المسلمين، وبينما تتزايد الثروة فى أيديهم تتبعثر موارد المسلمين وتتضاءل.

وانقضت الصليبية بالفعل – بكل ما تحمله فى نفسها من حقد ومرارة – تحاول تمزيق العالم الإسلامى، وابتلاعه قطعة قطعة، تساندها الصهيونية بالأموال وبالعملاء، وهدفها الأكبر هو هدف الصليبية منذ قامت الصليبية.. محاولة القضاء على الإسلام.

* * *

لقد استعمرت أوربا العالم كله فى الفترة الأخيرة، بحثا عن الموارد، وبحثا عن الترف والنعيم على حساب الآخرين كما كان يفعل الاستعمار الرومانى من قبل (وأوربا هى وريثة الإمبراطورية الرومانية) وزهواً بالسلطان الذى تستعبد به العباد..

ولكنها فى العالم الإسلامى كان لها شأن آخر..

كانت تبحث عن الموارد ولا شك، وتبحث عن الترف والنعيم على حساب الآخرين ولا شك، وتستمتع بالزهو والسلطان والقدرة على السيطرة والاستعباد..

ولكنها قبل ذلك كله كانت تسعى إلى شىء آخر، أهم فى نظرها من الموارد والخامات والترف والسلطان، هو إزالة الإسلام من الوجود، وفى القليل إخضاع الإسلام للنصرانية..

لسنا نحن الذين نقول ذلك:

إنما يقوله كتاب تلك الفترة من التاريخ من المستشرقين – أو بعبارة أدق – المنصرين.

لقد كان هذا الطور من عملية الاستشراق ممثلاً فى عملية التنصير (التى يسمونها التبشير!) فقد انطلق المنصرون مع طلائع الاستعمار الصليبى يسعون فى لهفة مجنونة إلى تنصير المسلمين، ويؤكدون هذا الهدف فى كلامهم وأفعالهم، وذلك قبل أن يتبينوا بالتجربة العملية أن التنصير المباشر للمسلمين عمل أحمق ليست وراءه نتيجة حقيقية. فلما تبين لهم، عدلوا عن التنصير المباشر، وداروا حول الهدف ليصلوا إليه من طريق آخر، هو تنصير أفكار المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم ونظرتهم إلى الحياة، **بهدف استعبادهم للنصرانية**، مع إبقائهم يحملون أسماء المسلمين، ويحسبون أنهم مازالوا مسلمين!

يقول اللورد كرومر: الحاكم الإنجليزى لمصر بعد الاحتلال (وكان يسمى المعتمد البريطانى) فى كتابه «مصر الحديثة Modern Egypt»: إن مهمة الرجل الأبيض الذى وضعته العناية الإلهيه على رأس هذه البلاد أن يجعل النصرانية هى قاعدة التعامل، مع المحافظة التامة على المظاهر الخاوية للدين الإسلامى، كعطلة الجمعة والعيدين وما إلى ذلك، منعاً من إثارة الشكوك!

ويقول أ. شاتليه رئيس تحرير مجلة «العالم الإسلامى La Revue du Monde Musulman» الفرنسية، فى مقدمة كتاب «الغارة على العالم الإسلامى La Conquete du Monde Musulman» الذى صدر فى فرنسا فى بدايات القرن العشرين (١): «ولا شك فى أن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية من نفوس منتحليها، ولا يتم ذلك إلا ببث الأفكار التى تتسرب مع اللغات الأوربية. فبنشرها اللغات الإنجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية يحتك الإسلام (يقصد المسلمين بالطبع!) بصحف أوربا، وتتمهد السبيل لتقدم (!) إسلامى مادى،

(١) ترجمة محب الدين الخطيب.

وتقضى إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية، التى لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها».

ويقول لورنس براون Lawrence Brown : «الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام، وفى قوته على التوسع والإخضاع، وفى حيويته. إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوربى [١] (ولذلك يجب تحطيمه بطبيعة الحال !).

وجاء فى كتاب «إعادة التفكير فى شئون الإرساليات التبشيرية Rethinking Missions»: « ولقد كانت الدول الأجنبية تبسط الحماية على مبشريها فى بلاد الشرق لأنها تعدهم حملة لتجاربها وآرائها وثقافتها إلى تلك البلاد. بل لقد كان ثمت ما هو أعظم من هذا عندها. لقد كان المبشرون يعملون – بطرق مختلفة كالتعليم مثلا – على تهيئة شخصيات شرقية لا تقاوم التبسيط (يقصد التسلط) الأجنبى» [٢].

ويقول اليسوعيون: «ألم نكن نحن ورثة الصليبيين؟ أو لم نرجع تحت راية الصليب لنستأنف التسرب التبشيرى والتمدين المسيحى، ولنعيد فى ظل العلم الفرنسى وباسم الكنسية مملكة المسيح؟» [٣].

«ومع أن التبشير يعمل ضد البوذيين والبرهميين أيضاً، فإن المقصود الأول بالجهود التبشيرية هم المسلمون» [٤].

* * *

وهكذا تساند الاستعمار الصليبى والتبشير لتحقيق هدف محدد: هو محاولة القضاء على الإسلام، واستعباد المسلمين للنصرانية، إرواء للحقد الصليبى المشبوب.

وسنبسط فى فصل تالٍ آثار التبشير والاستعمار فى حياة المسلمين. ولكنا

---

(١) عن كتاب التبشير والاستعمار فى البلاد العربية تأليف الدكتور مصطفى خالدى والدكتور عمر فروخ طبع بيروت ص ٣٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٠ . (٣) المصدر السابق ص ١١٧ .

(٤) المصدر السابق ص ٤١ نقلا عن كتاب Christian Workers

هنا نجتزى بإبراز هذه الحقيقة، وهى أن التبشير كان دائماً عملية سياسية صليبية، وليس مجرد محاولة لنشر الديانة المسيحية. كان وسيلة من أكبر الوسائل التى استخدمتها الصليبية لهدم الإسلام، وتوهين عرى الدين فى نفوس المسلمين، وإشاعة الضعف والانحلال فيهم؛ لتستولى عليهم وتستعبدهم. وكانت كل الكتب التبشيرية التى كتبت عن الإسلام مدفوعة بهذا الدافع. فهى لا تكتب عن الإسلام لتتحرى حقيقة الإسلام! وإنما لتتحرى الطرق التى تشوه بها العقيدة فى نفوس المسلمين لتسلبهم إياها، وتسلمهم بعد ذلك للضعف والهوان.

«ولا ينبغى لنا أن نتوقع من جمهور العالم الإسلامى أن يتخذ له أوضاعاً وخصائص أخرى إذا هو تنازل عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية (أى المستمدة من الإسلام) إذ الضعف التدريجى فى الاعتقاد بالفكرة الإسلامية وما يتبع هذا الضعف من الانتقاض والاضمحلال الملازم له، سوف يفضى بعد انتشاره في كل الجهات إلى انحلال الروح الدينية من أساسها، لا إلى نشأتها بشكل آخر»[1].

كانت كتبا موجهة لهدف معين، ومن ثم امتلأت بالطعن والتجريح، والتأويل الفاسد للقرآن والسنة، وتصوير الرسول ﷺ في أقبح صورة، والافتراء على وقائع حياته وتصرفاته بما ينفّر الفطرة البشرية.. ثم الربط بين واقع المسلمين يومئذ، وتأخرهم وانحطاطهم وجهلهم، وبين الإسلام ذاته، وهو سلاح خبيث استخدمه المنصرون – والمستشرقون من بعدهم – وألحوا فى استخدامه لصرف المسلمين عن التمسك بالإسلام!

المسلمون متأخرون لأنهم مسلمون! وضعفاء لأنهم مسلمون! وجهّال لأنهم مسلمون! وفقراء لأنهم مسلمون! ومرضى لأنهم مسلمون! ولا سبيل إلى تقدمهم وتحضرهم وتمدنهم إلا أن يخرجوا من الإسلام ويصبحوا نصارى.. أو فى القليل لا يصبحوا مسلمين!

مئات من الكتب. والنشرات. والمحاضرات. والدروس.. تؤكد هذا المعنى الخبيث، وترسخه فى نفوس المسلمين. وتستخدم له كل الوسائل الممكنة من

---

(١) مقدمة كتاب «الغارة على العالم الإسلامى» سبق ذكره.

دعوة علنية مباشرة إلى تستر وراء الأعمال الخيرية والمستشفيات والمستوصفات، إلى خطف الأطفال من أهلهم وتنصيرهم بالقوة، إلى بذل الأموال والمغريات..

ولكن أهم وسيلة كانت فى نظر المبشرين هى التعليم [١] !

«اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى فى عاصمة السلطنة العثمانية على أن معاهد التعليم الثانوية التى أسسها الأوربيون كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية يرجح على تأثير العمل المشترك الذى قامت به دول أوربا كلها» [٢] !!

والمسألة الشرقية في عرف الكتاب الغربيين يومئذ هي مسألة القضاء على الخلافة العثمانية، وتمزيق العالم الإسلامى، وتوزيع أسلابه بين الصليبيين !

* * *

المستشرقون اليوم -- فى طورهم الأخير -- هم خلاصة هذا كله..

خلاصة الصليبية الممتدة فى التاريخ، وخلاصة التبشير..

يقول محمد أسد فى كتابه «الإسلام على مفترق الطرق»:

«الواقع أن المستشرقين الأولين فى الأعصر الحديثة كانوا مبشرين نصارى يعملون فى البلاد الإسلامية، وكانت الصورة المشوهة التى اصطنعوها من تعاليم الإسلام وتاريخه مدبرة على أساس يضمن التأثير فى موقف الأوربيين من «الوثنيين» [٣]. غير أن هذا الالتواء العقلى قد استمر مع أن علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير، ولم يبق لعلوم الاستشراق هذه عذر من حمية دينية جاهلية تسيىء توجيهها. أما تحامل المستشرقين على الإسلام فغريزة موروثة، وخاصة طبيعية، تقوم على المؤثرات التى خلفتها الحروب الصليبية، بكل ما لها من ذيول، فى عقول الأوربيين الأولين.

---

(١) سنتحدث عن ذلك فى فصل قادم إن شاء الله.

(٢) الغارة على العالم الإسلامى ص ٧٢.

(٣) يشير إلى الطور الثانى من أطوار الاستشراق حين كان المستشرقون يكتبون لصد التأثير الإسلامى عن أوربا. ويشير فى الوقت ذاته إلى أن ذات البضاعة القديمة هى التى استخدمها المبشرون لصرف المسلمين عن التمسك بالإسلام.

« ولقد يتساءل بعضهم فيقول: كيف يتفق أن نفورا قديما مثل هذا – وقد كان دينيا فى أساسه وممكنا فى زمانه بسبب السيطرة الروحية للكنيسة النصرانية – يستمر فى أوربة فى زمن ليس الشعور الدينى فيه إلا قضية من قضايا الماضى؟

« ليست هذه المعضلات موضع استغراب أبداً، فإنه من المشهور فى علم النفس أن الإنسان قد يفقد جميع الاعتقادات الدينية التى تلقنها فى أثناء طفولته، بينما تظل بعض الخرافات الخاصة – التى كانت من قبل تدور حول تلك الاعتقادات المهجورة – فى قوتها تتحدى كل تعليل عقلى فى جميع أدوار ذلك الإنسان، وهذه حال الأوربيين مع الإسلام. فعلى الرغم من أن الشعور الدينى الذى كان السبب فى النفور من الإسلام قد أخلى مكانه فى هذه الأثناء لاستشراف على الحياة أكثر مادية، فإن النفور القديم نفسه قدبقى عنصرا من الوعى الباطنى فى عقول الأوربيين. وأما درجة هذا النفور من القوة فإنها تختلف بلا شك بين شخص وآخر، ولكن وجوده لا ريب فيه. إن روح الحروب الصليبية – فى شكل مصغر على كل حال – مازال يتسكع فوق أوربة، ولا تزال مدنيتها تقف من العالم الإسلامى موقفاً يحمل آثاراً واضحة لذلك الشبح المستميت فى القتال » (١).

ولقد كان هذا كله بطبيعة الحال حديثاً عن المستشرقين النصارى. أما المستشرقون اليهود فلهم دوافعهم التاريخية الخاصة، التى تلتقى فى النهاية مع رغبة الصليبية فى القضاء على الإسلام.

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق، مرجع سابق، ص ٥٨ – ٥٩.